

تصنيف النظرية الاجتماعية

علي حامد - جامعة الوادي-الجزائر

د. فوزي لوحيدي - جامعة الوادي-الجزائر

ملخص

تعد عملية تصنيف النظرية الاجتماعية أحد المشكلات التي تواجه الباحثين في علم الاجتماع بسبب طبيعة التداخل الشديد بين موضوعات علم الاجتماع ومجالاته المختلفة. ولكن هذا لا ينفي على الإطلاق، البعد عن التصنيف واعتباره مشكلة بدون حل . لأن تصنيف النظرية الاجتماعية، تصنيفا على أسس ومعايير علمية قابلة للاختبار سيساعد على فهمها أكثر ومقارنتها وبالتالي يمكننا من ترتيب البيانات والحقائق المرتبطة بالقضايا المدروسة من أجل سهولة تحليلها ، وفهمها ودراستها.

الكلمات المفتاحية: تصنيف، النظرية الاجتماعية، المعايير.

La classification de la theorie sociale

Résumé :

La classification de la theorie sociale est. l'un des problems rencontrés les specialistes de la sociologie. en raison de la nature du grand chevauchement entre les sujets de la sociologie et ses divers domaines. Mais ce n'est pas du tout une distance par rapport à la classification et un problème sans solution.

Mot clé: classification, theorie sociale, critères.

مقدمة:

إن طبيعة التداخل الشديد بين موضوعات وقضايا ومجالات علم الاجتماع ذاته أو بينه وبين مجالات العديد من التخصصات في العلوم الاجتماعية الأخرى تجعل من عملية التصنيف أحد المشكلات التي لا تزال تواجه الباحثين في علم الاجتماع وغيره من العلوم الاجتماعية الأخرى وهذا ما ظهر أيضا على سبيل المثال ، عند محاولة تصنيف تعريفات وموضوعات ومجالات علم الاجتماع ككل. ولكن هذا لا ينفي على الإطلاق ، البعد عن التصنيف واعتباره مشكلة بدون حل ، بقدر ما يتصور بصورة أكيدة ، أن هدف التصنيف من الدرجة الأولى ، ترتيب البيانات والحقائق المرتبطة بالقضايا المدروسة، من أجل سهولة تحليلها ، وفهمها ودراستها عن طريق الباحثين والمتخصصين في مجال الدراسة ذاته أو عن طريق غيرهم من التخصصات العلمية الأخرى.¹ كما أن للتصنيف في كل عمل علمي أدوارا بارزة ومهمة ، فهو للوصف والتحليل العلميين مقدمة منطقية ، وفي المقارنة والمضاهاة أساس لا بد منه ، وفي تنقية الأفكار والقضايا والنتائج محور لا يمكن تغافله .

وسعى منا إلى محاولة تصنيف الاتجاهات النظرية تصنيفا يساعد على فهمها أكثر ومقارنتها ونظرا إلى خطورة عملية التصنيف وأهميتها ، ارتأينا أن نفرّد لها هذا الموضوع ، لاستجلاء أبعادها ومعاييرها ، وكيف يمكن استخدامها والاستفادة منها.

وقد بدأنا خطوات هذا الموضوع بتوضيح أهمية التصنيف وأركانه العلمية ، مروراً ببعض الملاحظات التحليلية لأبرز المحاولات التي تمت في نطاق تصنيف اتجاهات علم الاجتماع ، وصولاً في آخر الموضوع إلى تصنيف مقترح وإبراز أهم مبرراته وشواهد معقوليته.

1 - في أهمية التصنيف العلمي ومعاييرها .

تعد قضية تصنيف الاتجاهات النظرية المعاصرة في علم الاجتماع من بين أكثر القضايا أهمية في توضيح هذه الاتجاهات وتفهم مساراتها .

لقد المح " هوابتد " إلى أن التصنيف أمر ضروري للعلوم ، لأنه من بين الأساليب التي تسهم في التعرف على مكونات الأشياء المصنفة ، فهذا التلميح فيه قدر كبير من الصواب.

لأنك عندما تهم بتصنيف فكرما، أو قضايا بعينها، يجعلك هذا تنتظر في خصائص هذا الفكر، وهذه القضايا ، بقصد معرفة ما يميز كل منها ، حتى تضعه في فئته المناسبة ، وفي عملية تحديد المميزات والخصائص ، تركز على الجوهر والأساس في هذا الفكر.² أما عن الأدوار الأخرى للتصنيف فمن بينها أنه ييسر عمليات المقارنة والمضاهاة بين محتويات ما تم تصنيفه ، وهي هنا اتجاهات نظرية علم الاجتماع ، وهذه المقارنة تعد ضرورية لفهم الاتجاهات في جملتها ، وعلى مستوى كل فيها على حدة ، حيث تساعد على مقابلة الاتجاهات ، وتكشف ما بداخلها وما بينها من قضايا وتوجهات وتميزات ، وأسس علمية ومنهجية الخ .

ومع تسليم الكثيرين بأهمية هذا التصنيف وجدواه، فالملاحظ وجود إغفال نسبي لهذه المسألة ، وما وجد من محاولات لا يتلاءم وأهمية التصنيف وضرورته ، فضلا عن اضطراب بعض ما تم ، سواء بسبب افتقاده إلى الأسس العلمية للتصنيف ، أو الزحام الشديد بين ما اعتبر اتجاهات نظرية من وجهة نظر البعض ، أو ارتباط بعض النظريات بأسماء أصحابها .³

يمكن أن يضاف إلى ذلك تحاشي البعض لعملية التصنيف، إما بسبب صعوبتها، والخوف من دقة مخرجاتها، أو بسبب خوف أنصار بعض الاتجاهات من نتائج التصنيف الذي يمكن أن يسهم بطريق أو بآخر في إمطة اللثام عن اتجاهاتهم، وما قد يسفر عنه من جوانب زيف أو قصور أو ادعاءات ومزاعم علمية في هذه الاتجاهات.

يمكن التمييز بين مسلكين عامين، في داخلهما مسالك أخرى فرعية. المسلك الأول عني بالتصنيف والتنميط مباشرة، دون الالتفات إلى مسائل المعايير والأسس والشروط المنهجية المطلوبة، أما المسلك الثاني فقد أُلِم منهجياً بتوضيح فلسفة التصنيف ومعاييره، ثم اختبر هذه المعايير من خلال القيام بتصنيف فعلي للاتجاهات. ويمكن القول بأن المسلك الأول كان الأكثر شيوعاً وتواتراً بين الباحثين، وربما كان ذلك لسهولة. والدليل على ذلك أمثلة كثيرة منها على سبيل المثال وبقصد التوضيح محاولة اليكس انكليز في كتابه: ماهو علم الاجتماع؟ والذي ركز فيه على عدد من الاتجاهات والنماذج التي رآها كآمنة وراء أعمال معظم رواد علم الاجتماع ووراء معظم مدارسها أيضاً.

وقد كان مخرج هذا التصنيف التركيز على النماذج التالية: النموذج التطوري والعضوي ممثلاً في البنائية الوظيفية، ونموذج التوازن في مقابل نموذج الصراع الاجتماعي، ونموذج العلم الطبيعي وأخيراً النماذج الرياضية والإحصائية.⁴

يلاحظ على هذا التصنيف أنه يخلط بين مضمون الاتجاه المعني، وبين توجهه العام، ومنهجه. فضلاً عن أن اتجاهات أخرى يمكن ألا نجد لها مكاناً داخل هذا التصنيف كالاتجاهات النقدية، والمادية والانتشارية وما إلى ذلك. ويقترب ما قدمه بيرس كوهين في كتابه "النظرية الاجتماعية الحديثة"، مما قدمه انكليز. فقد اهتم الأول في تصنيفه، بالمحاولات السوسيولوجية التي سعت إلى تفسير النظام الاجتماعي لأنه يعتبره جوهر الموضوع الأساس لعلم الاجتماع. المهم في الأمر أن

ما توصل إليه هو تصنيف الاتجاهات إلى: نظريات القهر أو القسر، ونظرية المصلحة، ونظرية الاتفاق ألقيمي، وأخيراً نظرية القصور الذاتي.⁵

وثمة محاولات أخرى تتشابه مع السابقة، منها محاولة بيتر سوروكين في كتابه "النظرية المعاصرة" ومحاولة نيقولا تيماشيف، ومحاولة دون مارتيندال وآخرين.

أما المسلك الثاني والذي يهمننا أكثر، لمنهجية، ومحاولته الجادة فمن الأمثلة عليه ما وافانا به هلمت فاجنر⁶. الذي بدأ بطرح عدد من الأسئلة الهامة التي تفيد الإجابة عليها في تبين الشروط الأساسية، والمعايير المطلوبة لأي تصنيف دقيق أو قريب من الدقة. وهذه الأسئلة تتمثل في ثلاثة أساسية هي:

- 1 - هل هناك انساق داخلي في التصنيف؟
- 2 - هل التصنيف قادر على التمييز بين الاتجاهات الأساسية، خاصة عندما تكون هناك فروق جوهرية بينها؟
- 3 - هل يوسم التصنيف بالعمومية بشكل يجعله قادراً على تصنيف الاتجاهات القائمة أو على الأقل تصنيف معظمها؟

وفي معرض تحليل فاجنر لهذه الأسئلة أكد أن هدفه من السؤال الأول هو إبراز معيار أو معايير التصنيف، وأن الاتساق المنشود يمكن تحقيقه كلما قل عدد المعايير، ويفضل استخدام معيار واحد إذا كان ذلك ممكناً، سواء ركز هذا المعيار على جوهر الاتجاه النظري أو على أهدافه، أو منهجيته، أما ما قصده من السؤال الثاني فهو ضرورة تحليل الاتجاهات وتوضيح ما بينها من نقاط التقاء واختلاف، والجوهر المميز، لكل منها. وأما السؤال الثالث والأخير فيعني بمخرج التصنيف، فكما قلت البقايا التي يصعب إيجاد مكان لها داخل أي من فئات التصنيف كان التصنيف أكثر قدرة على استيعاب الاتجاهات المراد تصنيفها. ومع حرص فاجنر الشديد على إبراز أهمية هذه الأبعاد المنهجية، فقد أشار

بوضوح إلى صعوبة الجمع بين المعايير السابقة في تصنيف واحد. المهم ما في الأمر أنه في ضوء ما سبق حاول اختبار أسس تصنيفه، فأنتنت نتائج على النحو التالي:

- 1- النظريات السوسيولوجية الوضعية، التي يعتبر مؤلفوها علم الاجتماع علما طبيعيا، أو هم يتعاملون معه على هذا الأساس. وتتضمن هذه الفئة النظريات التي تأثرت بالعلوم الطبيعية، أو قلدتها، أو تأثرت بأطرها المرجعية بإدخال أبعاد غير سوسيولوجية في تفسير الواقع الاجتماعي. ومن أمثلة هذه النظريات الوضعية الجديدة والايكولوجية الإنسانية الحديثة، والبنائية الوظيفية، والسلوكية والنظرية النفسية الحيوية في الثقافة.
- 2- النظريات التفسيرية التي ينظر أصحابها، أو يتعاملون مع علم الاجتماع على أنه علم اجتماعي يمثل تقابلا متميزا عن العلم الطبيعي. ومن أمثلة هذه النظريات، نظرية الفهم الثقافي، أي تفسير الواقع الاجتماعي بالثقافة. ومن خلالها، ونظرية الفعل.
- 3- النظريات الاجتماعية غير العلمية أو التقييمية، والتي يتعامل مؤلفوها مع علم الاجتماع كفلسفة اجتماعية، أو كإصلاح اجتماعي أو كليهما معا.

إجمالا لهذا التحليل يمكن تحديد التصنيفات التالية:

1 - التصنيف على أساس البعد التاريخي:

يعتمد أصحاب هذا التصنيف على ترتيب النظريات السوسيولوجية من خلال ظهورها من الناحية التاريخية⁷. ووفقا للمراحل الزمنية التي ظهرت فيها. كما يمكن تقسيم كل مرحلة إلى مجموعة من النظريات العامة والتي تندرج تحتها نظريات فرعية أخرى، ولقد استخدم هذا التصنيف من طرف ليختنبرجر في كتابه " تطور النظرية الاجتماعية " و هاوس في كتابه: " تطور علم الاجتماع ". كما اعتمد أيضا نيقولا تيماشيف في كتابه المميز عن " النظرية السوسيولوجية " هذا التصنيف بصورة كبيرة. فلقد تناول على سبيل المثال تيماشيف طبيعة التطور التاريخي لنظريات علم الاجتماع وقسمها إلى أربعة مراحل:

- 1 - المرحلة الأولى: وتتضمن نظريات علماء الاجتماع الأوائل منذ نشأة هذا العلم حتى عام 1875 ، ومن أهم نظريات هذه المرحلة نظريات كونت وسبنسر ولولي وماركس وفيرر وتاييلور ومورغان وغيرهم.
- 2 - المرحلة الثانية: وتتحدد تاريخيا بالربع الأخير من القرن 19 ، وتشمل النظريات الداروينية الاجتماعية ، والسيكولوجية ، والنظرية الاقتصادية ، والتكنولوجية ، و الديموغرافية ، والمدرسة الاجتماعية ، والنزعة الذاتية الروسية .
- 3 - المرحلة الثالثة: وتمتد خلال الربع الأول من القرن العشرين ، وتتضمن مرحلة انقسام النظرية التطورية إلى أقسام فرعية ، لتشمل جوانب اجتماعية وسيكولوجية ومثالية .
- 4 - المرحلة الرابعة والأخيرة: وهي التي تظهر تقريبا قرب القرن العشرين وتتميز بظهور مجموعة كبيرة من المدارس والاتجاهات الحديثة مثل الوضعية المحدث ، والايكولوجيا البشرية ، والاتجاه الوظيفي ، وعلم الاجتماع النظري ، وعلم الاجتماع التاريخي والفلسفي ، بالإضافة إلى مجموعة أخرى من الاتجاهات العقلية والامبريقية⁸.

2 - التصنيف على أساس البعد الجغرافي:

يعتمد هذا التصنيف عن طريق استخدام المناطق والدول التي ظهرت فيها النظريات السوسولوجية كمقياس لعرضها وتصنيفها . وفي هذا الإطار يمكن تصنيف النظريات السوسولوجية في فرنسا وتشمل نظريات كونت و دوركايم على سبيل المثال . والنظريات الألمانية مثل ماركس وفيرر أو النظريات البريطانية مثل تحليلات سبنسر وفي الولايات المتحدة مثل نظريات بارسونز وغيره⁹ .

3 - التصنيف على أساس المنهج:

يعتمد هذا التصنيف على أساس اختيار بعد المنهج ، أو مدى التزام النظريات بالأبعاد المنهجية العلمية في دراساتها وتحليلاتها . خلاص هذا التصنيف إلى ثلاثة نظريات وهي:

1-3 : **النظريات الوضعية:** وتقوم هذه النظريات على تصور أن علم الاجتماع ينبغي أن يعالج موضوعاته وقضاياها باعتباره علما طبيعيا ، وتتضمن هذه النظريات كل من النظريات الوضعية المحدثة ، والايكولوجية البشرية ، والوظيفية البنائية ، والسلوكية الاجتماعية ، وأيضا النظريات النفسية والبيولوجية .

2-3 : **النظريات التفسيرية:** وتشمل التحليلات التي تتمسك بالقواعد المنهجية العامة للعلم ، ودون الاستعانة بالمناهج العلمية التي توجد في العلوم الأخرى . وتتضمن هذه كل من نظريات الفهم الثقافي والنظرية التفسيرية للفعل ونظرية الفاعل ، ثم نظرية الفينومينولوجيا الاجتماعية.

3-3 : **النظريات التقويمية:** وهي النظريات التي تهدف إلى الربط بين علم الاجتماع والفلسفة عن طريق استخدام أحكام القيمة والتكامل الثقافي .

4 - التصنيف على أساس النماذج المستعارة من العلوم الأخرى:

يظهر هذا التصنيف من خلال تصنيف النظريات السوسولوجية حسب استعارتها من العلوم الطبيعية والاجتماعية الأخرى ، مثل المدرسة الميكانيكية في علم الاجتماع ، والمدرسة البيولوجية ، والمدرسة السيكلوجية ، والمدرسة الجغرافية . يعتبر بيترم سوروكين من ابرز العلماء الذين لجئوا إلى هذا التصنيف في تناولهم للنظريات السوسولوجية ، حيث عرض لطبيعة المدرسة الميكانيكية ، والتي تتناول تفسير الظواهر الاجتماعية في ضوء مفاهيم الطبيعة والكيمياء والميكانيكا ، والمدرسة الجغرافية ، في تحديد العلاقة بين البيئة الجغرافية وتأثيرها على الحياة الاجتماعية والدين والاقتصاد والأسرة ، والمدرسة البيولوجية ، عند محاولة عقد نوع من المماثلة البيولوجية بين الكائن العضوي وبناءات المجتمع ووظائفه واستخدام مفاهيم مثل الوراثة والانتخاب والبقاء للأصلح أو الأصلح ، ثم المدرسة النفسية عند تفسير السلوك في ضوء الخصائص والعوامل المتعددة ، والمدرسة السوسولوجية ، تهدف إلى تفسير الظواهر الاجتماعية وإرجاعها إلى أصولها الاجتماعية مثل تفسيرها للعلاقة المتبادلة بين العامل الاقتصادي كعامل رئيسي الذي يؤثر على جميع مظاهر الحياة الاجتماعية.¹⁰

5 - التصنيف على أساس الأصول الفلسفية:

يعتبر من ابرز علماء النظرية السوسولوجية الذين اعتمدوا على مقياس إرجاع النظريات إلى أصولها الفلسفية « دون مارتيندال » في كتابه المعروف عن " النظرية السوسولوجية: طبيعتها وأنماطها " . حيث أشار إلى خمس نظريات رئيسية ومجموعة أخرى من المدارس الفرعية التي تندرج تحتها وهي:¹¹

1-5 : **المدرسة العضوية الوضعية:**

تمتد أصول هذه المدرسة ومصادرها الأساسية إلى الفلسفة المثالية ، التي تركز على دراسة الواقع عن طريق اعتباره شيئا متضمنا في نوعية الأفكار ، ولذا تكون الأفكار أكثر الأشياء وضوحا وتعبيرا عن الواقع ذاته . أما الوضعية فإنها تشمل

الاتجاه الفكري الذي يهدف إلى تفسير العالم عن طريق الخبرة ، وتمتد جذور النزعة الوضعية إلى فلاسفة اليونان القدماء ، ولكنها تبلورت على أيدي كل من فرنسيس بيكون ولوك وهيوم وفولتير . وبالرغم من تأثر هذه المدرسة بالتقدم الذي في علم البيولوجيا واعتماد الكثير من روادها على استخدام المماثلة البيولوجية في تفسير الظواهر الاجتماعية ، إلا أنها لاقت معارضة شديدة ، وأدت إلى إهمال هذا الاتجاه لفترة محدودة ، وما لبثت أن تطورت بعد ذلك من خلال ظهور الوضعية المحدثة على أيدي مجموعة من العلماء ومن أهمهم شبنجلر و سوروكين .

5-2 : مدرسة الصراع:

ترجع جذور هذه المدرسة إلى أصول فلسفية يونانية قديمة ، ويعتبر صاحبها الأول الفيلسوف هيراقليطس الذي يعد أول صاحب نظرية عن التغير ، وتنتظر إلى الصراع عموماً على أنه ظاهرة أساسية ومحورية في جميع جوانب الحياة الاجتماعية . ولكن انتقلت هذه الأفكار إلى رواد الفكر السياسي والاجتماعي خلال العصور الوسطى وعصر الإصلاح والتتوير ، وظهرت على أيدي ميكافلي وبودان وهوبز . لكن هذه المدرسة أو النظرية لم تتبنى الاتجاه الفلسفي أو العقلي فقط عند تفسيرها للصراع ، ولكنها انتقلت إلى الجانب الامبريقي وإجراء الدراسات الميدانية ، وذلك بفضل تحليلات كل من هيوم و فيرجسون عن النظم السياسية ، ومع بداية القرن التاسع عشر تطورت الأفكار الثورية ، والتي تبنت اتجاه الصراع في تحليلاتها . وهذا ما ظهر في المدرسة الماركسية ، الداروينية الاجتماعية عن طريق تركيزها على دراسة كل من الطبقات الاجتماعية ، كما ظهرت عند ماركس أو اهتمامها بالطابع المحافظ كما ظهرت في تحليلات كل من هيربرت سبنسر و وليام سمندر.¹²

5-3 : الصورية أو الشكلية السوسيولوجية:

ارتبطت هذه النظرية بالأصول الفلسفية العقلية التي تمتد بصورة خاصة إلى الفلاسفة الإغريق ، ولكنها ما لبثت أن تبلورت في شكلها الجديد على أيدي كانط ، الذي سعى لتخليص العلم من النزعة الشكية ، وتبني النزعة العقلية وذلك عن طريق الاعتماد على دراسة أنواع معينة من القضايا التحليلية والتركيبية ، والالذان يكونان طبيعة المعرفة . وتهدف عموماً إلى ضرورة الربط بين الاتجاه العقلي والاتجاه الواقعي الامبريقي في تفسير المعرفة الإنسانية عموماً . ولكن ما لبثت أن تطورت هذه النظرية وأخذت إشكالا جديدة خلال القرن التاسع عشر ، ولاسيما بعد ظهور ما يعرف بالاتجاه الفينومينولوجي ، كما ظهرت في تحليلات رينوفيه في فرنسا أو كتابات بارك وسانتيان في الولايات المتحدة ، أو تحليلات جورج زيمل في ألمانيا

5-4 : السلوكية الاجتماعية:

ترجع الأصول الفلسفية لهذه النظرية لكل من الفلسفة المثالية والبرجماتية في نفس الوقت ، وتعتمد أيضاً على كل من المدخل السلوكي في تفسير الظواهر الاجتماعية ، وتحليلها لموضوعات وقضايا علم الاجتماع بشكل متعارض مع كل من المدرسة الوضعية والصراعية ، وأيضاً المدرسة الصورية أو الشكلية الاجتماعية ، وتركز المدرسة السلوكية الاجتماعية على استخداماً مناهج امبريقية جديدة في الدراسات السوسيولوجية ، وذلك من أجل تجنب الأخطاء أو المشكلات المنهجية كما حدث للمدارس والنظريات السابقة الأخرى.¹³

عموماً تطورت النظرية السلوكية الاجتماعية وانقسمت إلى ثلاث مدارس فرعية وهي: السلوكية الجمعية ، والتفاعلية الرمزية ، ونظرية الفعل الاجتماعي ، وتركز الأولى على تبني مجموعة من المقاييس الاجتماعية الكمية لدراسة الظواهر الاجتماعية والمشكلات الاجتماعية ، واهتمت كثيراً بمعالجة قضايا مثل التغير و الضبط الاجتماعي والشخصية . أما التفاعلية الرمزية ، فترجع جذورها إلى الجمع بين والبرجماتية والمثالية المحدثة ، وتهتم بدراسة العلاقة المتبادلة بين الشخصية الفردية والبناء الاجتماعي . كما أن نظرية أو مدرسة الفعل الاجتماعي ، ترتبط بتحليلات ماكس فيبر على وجه الخصوص ، ولكنها تبلورت أيضاً على أيدي كل من فيبلي وماكيفر و بارسونز و ميرتون وآخرون .

5-5 : الوظيفة السوسولوجية:

ترتبط هذه المدرسة بتحليلات مجموعة من رواد علم الاجتماع التي تتركز على دراسة الوظيفة السوسولوجية عند دراستها للأنساق أو البناءات الاجتماعية سواء تلك الأنساق أو البناءات أو الوحدات كبيرة الحجم أو الوحدات أو البناءات صغيرة الحجم ، ولقد جعلت هذه البناءات أو الوحدات بمثابة وحدة التحليل الرئيسية أو التي يطلق عليها بالتحليلات الكبرى والصغرى . ولقد جاءت تحليلات كل من براون ومالينوفسكي وباريتو وبارسونز وليفي و ميرتون و هومانز لتمثل دراسة الأنساق أو المجتمعات الكبيرة ، بينما تندرج كتابات كل من ليفن و زاندر وغيرهم عن طريق تبني المدخل المصغر أو دراسة المجتمعات الصغيرة . ولكننا نلاحظ أن كتابات روبرت ميرتون جمعت بين استخدام المدخل الوظيفي عند دراسة الظواهر الاجتماعية وتحديد طبيعة النظرية السوسولوجية المثلى لدراسة المجتمع الحديث أو ما اسماه : بالنظريات المتوسطة ، والتي تجمع بين النظريات الكبرى والصغرى عامة .

6- التصنيف على أساس البعد السوسولوجي:

يعتمد هذا التصنيف بالدرجة الأولى على ضرورة استخدام المدخل السوسولوجي في دراسة الظواهر الاجتماعية . ولقد استخدم هذا التصنيف احد منظري النظرية السوسولوجية وهو والتروالاس¹⁴ ، عندما أشار إلى ضرورة الأخذ في الاعتبار مجموعة من الملاحظات عند تصنيف النظريات والتي يجب أن يقوم بها الباحث قبل تفسيره للظواهر الاجتماعية أو الوصول إلى تعميمات حولها بصورة كلية . من أهمها هي البعد عن الذاتية وتحري الموضوعية عند دراسته وتفسيره للظواهر والمشكلات الاجتماعية .

7- التصنيف على أساس البعد الإيديولوجي:

ارتبطت النظرية السوسولوجية خلال النصف الأخير من القرن العشرين ، بطبيعة الايدولوجيا العالمية أو النظام العالمي خلال هذه الفترة . وهذا ما جعل هذه النظريات تصنف على أساس مدى تبنيها للاتجاه المحافظ أو الليبرالي ، أو الاتجاه الماركسي أو اتجاه الصراع . ويستطيع المتتبع للتراث النظري السوسولوجي خلال النصف الثاني من القرن الحالي ، أن يتعرف بوضوح على نشأة المدارس والنظريات والمذاهب وعلاقتها بالنظام الإيديولوجي أو تبنيها اتجاها إيديولوجيا معيناً توصف به عامة . وربما تعتبر تحليلات زيتلين المميزة للنظرية السوسولوجية وتصنيفاتها في ضوء علاقتها بالايديولوجيا خير مثال على ذلك ، حيث رجع بأصول النظريات إلى الأصول الفلسفية وخاصة فلسفة التاريخ ولاسيما آراء فلاسفة التنوير ، وأيضاً تميزه للاتجاه المحافظ الذي ظهر في الدول الغربية مثل تحليلات سيمون و كونت و فيبر و ميشلز و دوركايم و بارسونز . كما تعتبر تحليلات الفن جولدنر وكتابه المميز عن "الأزمة القادمة لعلم الاجتماع الغربي" من أهم التحليلات التي ربطت بين النظرية السوسولوجية والبناء الإيديولوجي ، واعتبار الإطار الإيديولوجي أحد العوامل المسيطرة على فكر المنظرين الاجتماعيين مما يهدد نظرتهم الموضوعية عند دراسة الظواهر الاجتماعية وتفسيرهم للواقع¹⁵ . بعد عرض التصنيفات السابقة ، يمكن تسجيل بعض الملاحظات التي قد يفيد تجميعها في تمهيد الطريق نحو أي محاولة أخرى للتصنيف تسعى إلى تخطي مثالب بعض المحاولات السابقة . يمكن إيجازها على النحو التالي :

1- سعت معظم المحاولات إلى الاهتمام بالاتجاهات شبه العامة في النظرية على اعتبار أنها كانت

الأكثر تأثيراً في بحوث علم الاجتماع .

2- يفهم من بعض المحاولات ، توجهها ومخرجاً أنها لملت أكبر قدر متاح أمامها من الاتجاهات حتى

ما خرج منها عن إطار علم الاجتماع وطابعه النوعي الذي يميزه عن باقي العلوم الإنسانية

- والاجتماعية الأخرى . واقصد هنا الاتجاهات التي هامت بمحاكاة العلوم الطبيعية ، أو التي أرادت أن تفسر ما هو اجتماعي بما هو غير اجتماعي من خلال بعض الاتجاهات النفسية أو الجغرافية .
- 3- مع التسليم بأن عملية التصنيف لابد من اعتمادها على أسس منهجية فان معظم المحاولات لم تهتم بهذا أساسا ، أو تركته لاجتهاد الباحث ، ويستثنى من ذلك بالطبع محاولة فاجنر .
- 4- مع أن علم الاجتماع ، ونشاط المتخصصين فيه بما في ذلك التنظير تعد انعكاسا لمجمل الظروف والأوضاع الاجتماعية والاقتصادية ، فلم ترد هذه الظروف ، أو الأوضاع في معايير التصنيف ، لان المعايير التي تكررت أكثر من غيرها حسب أهميتها هي التي يعكسها الترتيب التالي¹⁶ .
- أ - معيار تاريخي تتبعي لظهور بعض الرواد ، أو لنشأة الاتجاهات وتطورها .
- ب - معيار جغرافي ، صنف الاتجاهات بالبيئة أو المكان الذي نشأت فيه أو بدأت تظهر فيه .
- ج - معيار استند على خلفية الاتجاه ، أو مرجعه الفكري الفلسفي ، وهو ما يسمى أحيانا بالإطار المرجعي للاتجاه .
- د - معيار منهجي ركز على وجهة الاتجاهات في التعامل مع الوقائع ، وتحليلها وتفسيرها ، من خلال التركيز على طائفة أساسية من العوامل ، عدت من وجهة نظر هذا الاتجاه أو ذاك عوامل أساسية في السلوك والعلاقات الاجتماعية ، كالعوامل الايكولوجية أو النفسية الخ .
- هـ - معيار أتى في قاع التكرار من حيث مرات وروده ، وهو الذي حاول أن يربط بين علم الاجتماع ونظريته ، وبين وظائفه العلمية ، أو المجتمعية ، أو هما معا .

خاتمة:

في ضوء كل ما سبق من تحليل ومناقشة يمكن التوصل إلى أنه باستبعاد المعيارين التاريخي والجغرافي ، تبقى المعايير التي كان فاجنر قد أشار إليها في تساؤلاته الثلاثة المذكورة ، وهي التي تتعلق بالاتساق الداخلي للتصنيف ، وقدرته على التمييز بين الاتجاهات ، واتصافه بالعمومية . وهي أسئلة تعبر عن ضرورة توافر شروط في التصنيف المستخدم ، وإن كانت لم تتضح كلها من أسئلته إلا أنها تفيد في التأكيد على تصنيف قد يكون أكثر ملائمة تحمل الخصائص التالية :

- 1- ضرورة أن يكون التصنيف علميا .
 - 2- ضرورة أن يعبر التصنيف عن طابع علم الاجتماع ، ووظائفه ، وبالتالي طابع نظريته: خصائص ، وموضوعا ووظائف .
 - 3- أن يكون التصنيف قادرا على التعامل مع الاتجاهات الهامة و الأساسية ، وأن يتغاضى عن بعض التفصيلات التي قد تكون جزئية أو عرضية . وهذا يعنى كما أشار فاجنر انحسار ما لا يمكن تصنيفه أو ما يسمى بالبقايا .
- وإذا كانت هذه الشروط أو الخصائص الضرورية في التصنيف ، فالسؤال الذي لم يطرح بعد هو : على أية أفكار أو قضايا نطبق هذا التصنيف ؟ . هل نطبقه على كل المنتج السوسيولوجي منذ نشأة علم الاجتماع ، أو على الأعمال الفردية ، أو على ما يسمى بالاتجاهات ؟ . وبعبارة موجزة ما هي خصائص ما يمكن وصفه بأنه اتجاه يجدر بنا الاهتمام به وتصنيفه ؟ ومع ندرة ما كتب في اتجاه تشكيل إجابة على مثل هذا السؤال ، فإنه يمكن استنتاج الأسس التالية¹⁷ .

- 1- ضرورة أن تكون أفكار وقضايا ما يسمى اتجاهها أفكارا عامة واضحة ، متخللة لأفكار عدد كبير من العقول الخلاقة في فترة أو فترات بعينها .
- 2- لا بد أن تكون أفكار وقضايا ما يسمى اتجاهها أفكارا متميزة ، أي أنها تسهم في الأساس الذي يجعل خطأ فكرا متميزا عن خط فكري آخر ، ولذا تعتبر الأفكار و المفاهيم العامة حول الفرد والجماعة والنظام والشخصية أفكارا ليست مميزة لأنها قاسم مشترك بين كل الاتجاهات .
- 3- من الضروري أن يحمل ما يسمى اتجاهها خصائص الاتجاه النظري العلمي ، أي خصائص وشروط ووظائف النظرية العلمية ، من ناحية ، وطابع علم الاجتماع ونظريته ووظائفها من الناحية الأخرى .

وإذا حاولنا هنا أن نطبق شروط التصنيف ، وخصائص الاتجاه المقترح فيما سبق على الاتجاهات المعاصرة في علم الاجتماع ، والتي مارست تأثيرا واضحا وملموسا على مسارات التطوير في علم الاجتماع المعاصر ، فإنه يمكن أن نجد الاتجاهين التاليين:

- الاتجاه المحافظ

- الاتجاه النقدي

ونقصد بالاتجاه المحافظ هنا ، اتجاها يتحلى بالخصائص المذكورة آنفا ، لكنه يسعى إلى الإبقاء على البناء الاجتماعي القائم ، وأما الاتجاه النقدي فهو الذي يرى في البناء الاجتماعي القائم مرحلة انتقالية في تاريخ الإنسان ، لابد من تجاوزها إلى أخريات أكثر كفاءة ، وأكثر عدلا للإنسان . وليس المقصود هنا الاتجاه المسمى ليبراليا ، لأنه وإن كان يسمح بحريات الأفراد ، إلا أنه يجعلها محدودة ومشروطة بحيث لا تتجاوز جزئيات لا تؤثر في البناء الاجتماعي الكلي للمجتمع ، ومن ثم فهو في نهاية الجولة محافظ فيما يتعلق بنظرته للأوضاع البنائية القائمة . فهذا التصنيف ليس سياسيا بالمعنى الضيق أو المحدود للكلمة ، لكنه يرتبط بوحدة من الوظائف الهامة الضرورية لعلم الاجتماع ، بوصفه علما إنسانيا من المفروض أن يكون مع الإنسان ومع مستقبل أفضل من الحاضر¹⁸ .

إذا أردنا أن نعرض هذا التصنيف لمحك أو محكات خارجية من خلال كتابات ، أو نتائج توصل إليها آخرون فيمكن أن نجد الشواهد التالية التي تدلل على مصداقيته :

أولاً: إن الاتجاهين اللذين يركز عليهما التصنيف تنطبق عليهما معظم شروط الاتجاه النظري وخصائصه . فكلهما يتسم بالعمومية ، ويمثل إطارا يضم في داخله بعض المحاولات التنظيرية ، التي يوجد بينها نظرتها للمجتمع و الإنسان وما يحيط بهما من عوالم . وكل منهما يحوي أفكارا متميزة ، هي في التحليل الأخير المحافظة و الراديكالية . فإذا كان البعض قد صنف هذين الاتجاهين تحت مسميات أخرى ، كالوظيفية والجدل ، والتكامل والصراع ، والبنائية الوظيفية ، والبنائية التاريخية الدينامية إلى آخر هذه المسميات فجميعها تتفق على المضمون ، مع ملاحظة أن كل مصنف كان قد ركز على واحد فقط من الجوانب ، كالجانب المنهجي ، أو العملية المحورية أو الغاية ، وبالتالي أتت المسميات مختلفة . ولذلك فالتصنيف المقترح يفترض أنه يجمع معظم المميزات الفارقة بين الاتجاهين ، مضمونا وتوجها منهجيا وغاية¹⁹ .

ويؤكد على ذلك ما يلي:

1- في معرض تحليله لتطور التراث النظري في علم الاجتماع أوضح روبرت نسبت أن مولد العلم في العصر الحديث على يد أوجيست كونت أتى محملا بالمحافظة على الأوضاع ، مبررا لاستمرارية النظام القائم ، مما جعله يصوغ هذه الإيديولوجية الأقرب إلى المحافظة في قوالب علمية²⁰ .

2- يركز رايت ميلز في أعماله: " الخيال السوسيولوجي " ، على أن المواقف السوسيولوجية الأساسية التي عبرت عنها محاولات التنظير إما أنها أخذت موقفا موجبا مؤيدا و مبررا للنظام القائم و إما أنها أخذت موقفا سالباً نقدياً ، لتجاوز النظام القائم . والموقف الثاني يكاد يكون أكثر اتساقاً مع علم الاجتماع ، لأنه يعبر عن حصاد الغايات العلمية والمجتمعية للعلم²¹ .

3- أن علم الاجتماع شأنه شأن كثير من العلوم الأخرى كان قد نشأ في أحضان الفلسفة ، وإن كانت هذه العلوم قد استقلت عن الأم فهي جميعا تكاد تدور في فلكها واتجاهاتها ، مهما أنكر الباحثون في علم الاجتماع ذلك ، لكي يكسبوا علمهم طابعا علميا ، ولو بمحاكاة العلوم الطبيعية ، التي تحقق انجازات في نتائجها ، ويدلل على هذا أن

الفلسفتين المثالية والواقعية ، كانتا ولا تزالان الإطار المرجعي الأساسي لكثير من اتجاهات التنظير في علم الاجتماع وبالخصوص الاتجاهات الأساسية ، والأكثر شيوعا وانتشارا²² .

4- توضح أعمال الفن جولدنر أبرز من أسهم في الحركة النقدية المعاصرة في علم الاجتماع ونظريته ، في كتابه " الأزمة القادمة لعلم الاجتماع الغربي " ، والتي توضح أنه من الصعب على الباحث في أمور نظرية علم الاجتماع أن يفصل بين نقده للاتجاهات النظرية ، وبين دورها في نقد المجتمع ، فكلاهما يؤثر في الآخر ، وهما سويا يكسبان العلم طابعه المميز²³ .

5- أكد بيتر ورسلي ، على أن التنظير السوسيولوجي مطالب بالاهتمام بسياق المجتمع المعاصر ، سواء من خلال إبراز فاعلية النظرية أو من خلال الموقع المجتمعي الذي يود الباحث التعبير عنه ، على أن يكون كل هذا متوجها نحو المستقبل ، من خلال رؤى و تصورات واضحة²⁴ .

6- أما ستيفان نوفاك فيرى من خلال تحليله لتطور علم الاجتماع أن معضلة هذا العلم تتمثل في أنه أثبت أنه قام بأدوار محافظة ، ومع تسليمه بأن ثمة ضغوطا مباشرة أو غير مباشرة هي التي دفعت بالباحثين نحو هذه الوظائف ، فهو يطالب بضرورة إبراز التيارات المحافظة وغير المحافظة وتحليلها وفهم دروسها حتى يخرج العلم من أزمتة²⁵ .

ثانياً: من خلال ما تم تقديمه يذهب التحليل الحالي إلى أن التقسيم الوارد قد يكون أكثر اتساقا مع المهام المطروحة على علم الاجتماع واتجاهاته النظرية . ذلك لأن الاعتماد على شروط علمية لا يكفي ، مع أنها قد تكون بديهية ومن المفروض أن تتوفر فيما يسمى اتجاهها علميا و بالتالي يبقى التوجه الإنساني الاجتماعي الاتجاه الأساس لعرض الاتجاهات وتصنيفها

الهوامش:

- 1 عبد الله محمد عبد الرحمان (2006) ، النظرية في علم الاجتماع ، دار المعرفة الجامعية - القاهرة . ص 103
- 2 عبد الباسط عبد المعطي (1981) ، اتجاهات نظرية في علم الاجتماع ، سلسلة عالم المعرفة عدد 44 - الكويت. ص 37
- 3 محمد عاطف غيث (1972) ، الموقف النظري في علم الاجتماع المعاصر ، دار الكتب الجامعية - القاهرة . ص 105
- 4 محمد الجوهري (1975) ، مقدمة في علم الاجتماع ، دار المعارف - مصر . ص 76
- 5 Cohen , P. Modern Social Theory , Heineman , London , 1968 P . 21
- 6 Wagner , H , « Types of Sociological Theory , Toward A system of classification » in M . Barron , ed , contemporary Sociology , Dood & Mead Company , N . Y , 1965 , P . 598
- 7 عبد الله محمد عبد الرحمان ، مرجع سابق ، ص 104
- 8 المرجع نفسه ، ص 105
- 9 Gurvitch , G & Moore Twentieth Century Sociology . 1946 , P . 105
- 10 عبد الله محمد عبد الرحمان ، مرجع سابق ، ص 106
- 11 Don Martindale . The Nature and Types of Sociological Theory , London , 1967 . P 98
- 12 عبد الله محمد عبد الرحمان ، مرجع سابق ، ص 108
- 13 المرجع نفسه ، ص 109
- 14 Wallace , W , Sociological Theory , London : Heinman , 1971 . P 55
- 15 عبد الله محمد عبد الرحمان ، مرجع سابق ، ص 111
- 16 عبد الباسط عبد المعطي ، مرجع سابق ، ص 43
- 17 محمد عاطف غيث (1975) ، تاريخ التفكير الاجتماعي ، واتجاهات نظرية في علم الاجتماع ، دار النهضة العربية ، بيروت . ص 135
- 18 عبد الباسط عبد المعطي ، مرجع سابق ، ص 45
- 19 المرجع نفسه ، ص 46
- 20 Nisbet ; R , The Sociological Tradition , Basic Books , Inc. Publisher ,N . Y , SP , Int . P 9
- 21 عبد الباسط عبد المعطي ، مرجع سابق ، ص 47
- 22 محمد عاطف غيث ، تاريخ التفكير الاجتماعي ، مرجع سابق ، ص 142
- 23 Gouldner , A , For Sociology : Renewal end Critic in Sociology Today , Penguin Books , 1975 , P 21
- 24 Warsly P , The State of Theory and The Status of Theory , in Sociology ,vol.8 , n9 , 1974 ,P .22
- 25 Nowak , S , " Empirical Knowledge and social value in the Cumulative Developpement of Sociology" in Crisis and contention in Sociology , ed by : T . Bouttomore , Sage publications Ltd , London ,1975 , P .128